



حين تتحكم الأمزجة، وتحتّم الأفكار، ويغلب الهوى على الطبيعة الإنسانية، ويقلل العلم، ويكثر الجهل، ويُعجب كل ذي رأي برأيه، وتكثر التصورات الخاطئة، يتحصل لدى الشخص مزاج متعدد ضمن مزاج مختلف يجمع التشدد والتهاون في آن واحد!.

فليس غريباً - وإن كان متناقضاً في الوقت نفسه - أن ترى في محيطك البشري من يتشدد في أموره الدنيوية، وطريقة تعامله الحياتية والمادية، غير أنه يريد من العلماء في قضايا الشريعة أن يكونوا خُداماً له ليخففوا عنه في الفتيا حتى وإن خرج الأمر عن حدود التيسير الم مشروع، وحالما يفتيه العالم أنَّ قضيته ممنوعة شرعاً ومحرمة في دين الله، قد تُسَارع فئة منهم بوصم من أفتاه بالتشدد.

حالة كهذه تشتبك فيها الأبعاد النفسية مع الممارسات الفقهية، وهي كثيرة الوجود في المجتمعات، وقد يغفل عنها بعض الناس، فتشدد وتهاون، وتنطع وتساهل في الظاهر لا يلتقيان غير أنهما قد يلتقيان، ما دام أنَّ لكل منهما طريقاً يؤدي لمزاوجات تطلبها الأنفس وترتاح لأجلها.

في كتاب الله تعالى إشارات مُكثفة حول النفس؛ فقد وردت هذه الكلمة واستعاقاتها قرابة (295) مرّة؛ فالنفس فيها عجيب خلق الله، من تناقضات، وعُقدٍ، وأشياء خفية، لا يعرفها إلا الذي براها، بل يقع صاحب النفس في أشياء يقوم بها، هو ذاته قد يخفى عليه السبب الدقيق من فعله لها، وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "ما أكثر ما تفعل النفوس ما تهواه ظانة أنها تفعله طاعة لله" [1] وهي حتماً دسيسة نفسية تحتاج ليقظة حقيقة لانتزاعها وما يحتويها من سوس النفوس.

• تشدد مسكون عنه، وغلو نفسي دنيوي:

ثمة نماذج عملية تطبيقية سأذكرها تباعاً؛ لكن أستحسن إبراد جانب له علاقة بالنقاش الفكري في حلبة الحوارات له علاقة وطيدة بمقصد المقال؛ إذ إنَّ عدداً مِن يطلب التسامح مع الرأي الآخر وضرورة قبوله وعدم التضييق عليه من المعترضين؛ يقصدون بمعنى قبول الآخر أن يتسامح الناس مع أقوالهم التي يرومون نشرها بينما هم لا يتسامحون مع الرأي

الآخر، ويقومون بإسكات المُخالفين ووصمهم بصفات تشويهية تبشيّعية، ويعنونهم عن إبداء رأيهم، وتضييع كل كلماتهم الرنانة في الدعوة إلى الحرية والوسطية والسلام والتعايش وقبول الآخر.

إنها عقلية التشدد التي يزعم بعض من يدعوا للانفتاح أنَّه يُحاربها، وهو بذاته يقع في ما هو أقسى من التشدد؛ بوصم مخالفيه بالنقية وقد يتهمهم بصفات غير لائقة، ونسى تشبّثه برأيه وتشدده الغريب في الاستمساك به، وكأنَّ المرء لا يكون وسطياً منفتحاً إلا بجملة آراء من يحملها ينال القابلية للاعتراف بكونه منفتحاً غير متطرف!

وعلى أنَّ التشدد طبع مذموم، والإسلام نفسه قد تكفل بإدانته؛ إلا أنَّ المرء يجد في نفسه الارتياب بوضوح من يقول إنني أرفض القول الآخر، أكثر من يدعوا للتسامح مع الناس؛ فإذا وصل الأمر معه ومع قناعاته ورأيه؛ كان رأيه أشدَّ تطعاً وتشدداً من سابقه؛ لكنَّ الأول صريح في إبداء وجهة نظره؛ والثاني يلبس الأقنعة، والطبيعة النفسيَّة بينهما متفقة يجمعها قاسم مشترك في تصلب فكري من كل طرفٍ لجهته.

وفي خضمِ معركة النقاش علينا أن نفهم معنى اليسر والتشدد ضمن دائرة الوسطية التي تدعو إليها الملة الإسلامية؛ فالوسطية هي طريق القصد والاعتدال والخيرية، خلافاً لمن أراد أن يتّخذ موقف الوسط بين رأيين لمحاولة التأفيق بينهما أو قياس مسافة ما بينهما لاتخاذ الموقف المناسب، وكأنَّ الوسطية في الشريعة كالوسطية في موقف الطرف، وهذا ما لا يتفق مع المعنى الحقيقي للاتساق بالوسطية، فالأحكام الشرعية هي بذاتها أحكام وسطية وإن ارتأى بعضُ جاحدي الشريعة أو المتشكّفين فيها إلى اعتبارها متشددة أو متساهلة؛ فليس ذا عُشَّهم فليُدرجوها. والأحكام الإسلامية تدرك من خلال الفهم الأصولي العلمي الذي يقوم به رجالات العلم الشرعي؛ لأنَّ تفاصيل الآراء المُجردة من المتعاملين؛ ليُفصّلوا للناس مقاساً شرعياً لما هو وسطيٌّ بزعمهم!

إنَّ بعض المسلمين، تمرّج فيهم خاصيّتان: غلو عميق في الدنيا وتشدّد فيها، وتساهل وتفرّط بالأخذ بأمور الدين، ولذلك عدَّ نماذج، ذكر بعضها:

1. يتشدد في أعرافه وعاداته وتقاليد الاجتماعيات التي تحتاج للتغيير في الواقع، مع أنَّ بعض هذه التقاليد الشعبية فيها من الأخطاء البينة مما يتفق الناس عليها؛ إلا أنَّهم مستمرون بالقيام بها ولا ينفكون عنها قيداً نملة، وإن حدثَ أحدٌ لكي يُغيّر من قناعاته، يستعظم تركها كون الناس يفعلونها، ولا يُريد أن يسير عكس التيار!

2. يتعامل مع مُخالفيه بالغلظة والجفاء والشدة، وتسفيه رأيهم، ويتشدّد في وصم مخالفيه بكل نقية، بل تكاد تلتَّفُ عروقه أثناء تشنجه لرأيه، ويبدو منه النزقُ في الخُلق، لأنَّه يرى آراء من يحتدّ معهم متشددة؛ بينما هو يعتقدُ برأيه، ويحتدُ في موقفه، ويتشدّد في تعامله معهم.

3. يبالغ في طلب المهر المرتفع أثناء خطبة ابنته، ويرهق الخاطب بتكاليف الزواج؛ فيكون أكثر من أقرانه تشدداً في تزويج ابنته؛ بدعوى عريضة!

4. يريد أن يقتنه العلماء في البيوعات والمعاملات بالإباحة دوماً، ولا يطيق سماع كلمة تحرّم عليه ممارسة مالية لا تجوز، ويُحاول بكل وسيلة وذريعة أن يتوصّل لجواز المعاملة؛ غير أنه في مجال البيع والشراء ومعاملات الناس المالية؛ يتشدد للغاية؛ ولا يُسرّ عليهم.

قد يحفظُ قوله تعالى: **إِنْ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ**، وينسى حديث رسول الله في صحيح البخاري: (رحم الله رجالاً سمحاً إذا باع، وإذا اشتري، وإذا اقتضى) أي: إذا طلب قضاء حقه بسهولة، وعدم إلحاف.

وهو إن أراد الاقتراض من أحد ذكره بقوله تعالى: **إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَنَاً يُضَاعِفُهُ لَكُمْ**، لكن إن أقرض أحداً وتعسر معه ردُّ القرض، ينسى قوله تعالى: **وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةً فَنَظِرْهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ**.

5. يقع الشخص بخطأ لا يُخجل منه أثناء قيامه به، وبعد أن يُدرك قبح ما صدر عنه، ويُطلب منه أن يعتذر لغيره؛ أو يتنازل

لأخيه لإرضاء الله؛ يبدو في موقف متصلب ويتعرّض لإقناعه، لكنه لا يدع شائنة ولا فاذة في موقف أو لقاء مع بعض العلماء حتى يحدّثهم عن التسامح مع الناس في الفتوى، وهو لا يتسامح مع من أساء إليه!

6. يستهين بالقيام بالسنن والمستحبات والمندوبات، كونها ليست واجبات؛ وإن حرص أحد على التذكير بالسنن المهجورة، يصفُ من قام بها بالمبالغات الدينية والإغراء في جزئيات لم تصل لمرحلة الوجوب؛ بينما هو يتقصد التشبه بالكفار واتباع سنتهم وطرائفهم، ولا يجد أدلي غضاضة في ذلك، أو يبتعد بداعياً ما أنزل الله بها من سلطان، ويُطالِب الناس بمعرفتها وتطبيقاتها، ويتشنّج حين يسمع من ينهى عنها.

7. يحرص على معرفة حقوق غير المسلمين؛ حتّى يقع في الإجحاف بحقوق المسلمين الدينية والدنيوية؛ فيلتقي الحال هذه - مع وجود فوارق أخرى - بطريقة الخارج الذين يجتهدون في معرفة حقوق غير المسلمين من الذمة والعهد والأمان؛ أكثر من معرفة حقوق المسلمين من حفظ أعراضهم وأنفسهم، ولهذا جاءت الشريعة بتعرية حالهم، وصحّ فيهم قوله عليه الصلاة والسلام: (يقتلون أهل الإسلام ويَدْعُونَ أهلَ الْأُوثَانَ)، ولهذا رأى ابن عمر - رضي الله عنهما - أنّهم شرُ الخلق فقال: "انطلقا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المسلمين" أورده البخاري معلقاً وصحّه الحافظ في الفتح.

8. يتولى أمور العباد والبلاد فيحرص على سماع أحاديث التأكيد على السمع والطاعة؛ وينسى قوله صلى الله عليه وسلم: "الله من ولني من أمر أمتي شيئاً، فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولني من أمر أمتي شيئاً، فرفق بهم فارفق به" أخرجه مسلم في صحيحه.

9. يصلّي الصلاة ينقرها نقر الغراب؛ ويفكر كثيراً في أموره الدينية ومعاملاته؛ ولا يجد وقتاً بعد الصلاة لاستماع آية وذكر، أو جلوس مع أولاده لتربيتهم؛ بحجة أنه يُكافح لطلب رزقه وعيشه، وطلب الرزق عبادة، ولو قُلْبَت القضية فقيل له: صلّ كما تطلب رزقك فالصلاحة عبادة، لعدّ ذلك غلوّاً في الدين، وقد نسى غلوّه في دنياه، والحقُّ أن طلب الرزق لامس شيئاً في قلبه من حب المال وديمومة طلبه، فسبحان من آتاهم قوّة في طلب الرزق وتحمّلاً في بذلك كل شيء لأجله؛ وحرّمهم من التلذذ بالتعرف عليه، حتّى ما فهموا من العبادة إلا طلب الرزق!

هذا مع كون الرزق في الأصل ليس مُعْلَقاً بالمال والمادة فحسب؛ فالقضايا المعنوية يشملها الرزق، فمن معانيه أن تُرزق القلوب بالإيمان بالله والعلم به، فالله تعالى يقول: {زِينَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوا فَوْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}.

10. يلبس أحسن ثيابه وقت الذهاب لحفل زفاف، أو مقابلة وظيفية، ويهتم بأدق التفاصيل في مظهره وشكله، غير أنه يلبس ما رثّ من الثياب وقت صلاة الجمعة، وغيرها من أماكن التجمّع للعبادة، مع أنه تعالى يقول: (خُذُوا زِينَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ).

11. يحرص على حضور أعياد المشركين ومشاركتهم بحجج التسامح، مع أنّ فيها مما يُسخط الله ما هو معروف؛ وقبالة ذلك يسهر الليل إلى قبيل الفجر ولا يقوم مع جماعة المسلمين لأداء صلاة الفجر، ومن ثم صلاة العيد معهم وحضور بهجة العيد الإسلامي وزينته.

12. يطلب مدير في البنك الربوي أن يكتب على لوح زجاج فاخر في ذكرى المولد النبوى آية: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} وينسى قوله تعالى: {وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحْرَمَ الرِّبَا}، فتبرز الأخلاق التجارية الرأسمالية في تسويق ما يريد من أمور الدين، وتتناسى أشياءً آخر، فهو بزعم حبه للنبي صلى الله عليه وسلم يكتب هذه اللوحة، وإن قيل له: إنك في عملٍ ربوى خالص؛ فدفعه وابحث عن بديل وسيُوعّضك الله خيراً، يُحدثك عن الله الغفور الرحيم وعن دين اليسر وسماحة الإسلام، مع أنّ من دعا للاحتفاء بمولده - كما يزعم - هو من نهاد عن ذلك، فعند مسلم في صحيحه وغيره من حديث جابر: (لعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - آكل الربا وموكله وكاتبها وشاهديه وقال: هم في الإثم سواء).

13. يُصلّي خلف الإمام الذي يقرأ قوله تعالى: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ} فيتمّ: "بلى وأنا على ذلك من الشاهدين"، فهو

حريص على قول هذا الذكر في صلاته اتباعاً للسنة، وحين تأسّله: هل تؤمن بذلك حقاً وقد قطعت الميراث عن أخواتك وحرمتنه منه؟

ترى الأوجبة الذي تفوح منها رائحة الطمع الدنيوي، وفصله مسائل الدين عن الحياة، فتراه متمسكاً بالقيام بشيء، مُعرضاً تمام الإعراض عن تطبيق ما هو فرض!

14. يترك الصلاة بالكلية، ويذهب بالقرب من بوابة المسجد وقت صلاة الجنازة على قريبه أو صديقه الميت، ويهتم بموعد ذلك، وحين يخرج المصليون من المسجد يُشيع معهم الجنازة، ويرفع صوته إلى المقبرة، وبكل حماس يُردد: لا إله إلا الله والميت حبيب الله، وبعيداً عن كون ذلك غير مشروعًا، غير أنّ المرء يعجب من حرصه على مجاملات دنيوية حتى لا يعتب عليه الناس أو لصداقته للميت، ولكنه لا يعظ من الموت فيذهب يصلّي.

ما أسلفت ذكره إنما هي أعراض لأمراض من انشغل قلبه بالبحث عن التيسيرات مع تفريطات عملية في الجوانب الفقهية والشرعية؛ إزاء المبالغة المفرطة في قضايا الحياة الدينية، حتّى اضطره الأمر لأن يتطلب التيسير في أمور دينه، ويتشدد في دنياه.

٤. مُحدّدات الإشكالية:

تعتبر الإشكالية في مستوى الدوافع والرغبات النفسية في الانتفاع من كلا الأمرين؛ تشدد في حياته العامة، وتطلب التيسير أو التفلت من خطاب الشرع، مع تشدد أحياناً في فضائل دينية؛ مع تهاون في فرائضه، وهذا ينبع عن عدة أمور:

١. الهوى والتشهي:

فيأخذ ما يروق له في دينه، ويتشدد في دنياه اتباعاً لرغباته. وكلُّ يعلم ما يدور بقلبه، وما منشأه ومنزعه؛ فإن كان من قبل الهوى؛ فعليه أن يُصلح نيته، وقد أخرج الإمام أحمد في المسند وأبو داود في سننه بسند حسنٍ أنَّه عليه الصلاة والسلام قال: (إِنَّمَا سُيَخْرُجُ مِنْ أَمْتِي أَقْوَامٌ تَجَارِي - تَتَسَابِقُ - بِهِمْ أَهْوَاءً كَمَا يَتَجَارِي الْكَلْبُ بِصَاحْبِهِ لَا يَبْقَى مِنْهُ عَرْقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخْلَهُ).

يقول العلامة الشاطبي في كتابه الاعتصام: "وذلك أنّ معنى هذه الرواية أنه عليه الصلاة والسلام أخبر بما سيكون في أمته من هذه الأهواء التي افترقوا فيها إلى تلك الفرق، وأنه يكون فيهم أقوام تداخل تلك الأهواء قلوبهم حتى لا يمكن في العادة انفصالها عنها وتوبتهم منها، على حد ما يدخل داء الكلب جسم صاحبه فلا يبقى من ذلك الجسم جزء من أجزائه ولا مفصل ولا غيرهما إلّا دخله ذلك الداء، وهو جريان لا يقبل العلاج ولا ينفع فيه الدواء، فكذلك صاحب الهوى إذا دخل قلبه، وأشرب حبه، لا تعمل فيه الموعظة ولا يقبل البرهان، ولا يكتثر بمن خالفة"[2].

٢. الفهم الخاطئ للدين، وللنصول الشرعية:

يرى صعوبة الحياة وتعقيداتها الكثيرة؛ فيزداد تشبتاً وتمركاً حول الانتفاع الدنيوي؛ ويحاول البحث عن الرخص والحال طاناً أنَّ هذه الجوانب من الدين؛ أو مما أباحها علماء الدين؛ وقد يخفى عليه أنَّ الرخص منها المنصوص عليه شرعاً، ومنها المستنبط من قبل أهل العلم على وجهه الصحيح، ومنها ما يُعد زلة من العالم الذي أفتى بها، فيخلط هذه الرخص بعضها بعض، ويُحاول أن يفهم الدين على طريقته التي يختارها، ويفهم النصوص على وجهه مغلوط.

وقد ذكر الشاطبي رحمه الله بعض المفاهيم الخاطئة، ومن ذلك قوله: "ومن أرباب الكلام من ادعى جواز نكاح الرجل منا تسع نسوة حرائر، مستدلاً على ذلك بقوله تعالى: {فَإِنَّكُحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتَّنِي وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ}، ولا يقول مثل هذا من فهم وضع العرب في مثنى وثلاث ورباع، ومنهم من يرى شحم الخنزير وجده حلالاً، لأن الله قال: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ}، فلم يحرم شيئاً غير لحمه، ولفظ اللحم يتناول الشحم وغيره بخلاف العكس"[3].

٣. العُقد النفسية:

إذ يُبَتَّلى بِتَرْبِيَةِ خَاطِئَةٍ مُشَوَّهَةٍ لِلدين فِيهَا مِن التَّعْقِيدِ وَالتَّشَدُّدِ وَالتَّسْلِطِ؛ فَيَنْشأُ لِدِيهِ دَافِعٌ لِلتَّفَلُّتِ مِن الدِّينِ وَقِيُودِهِ وَحَدَّودِهِ الشَّرِيعَيْةِ؛ فَيُعْضُّهُمْ قَدْ تَكُونُ رَدَّةُ فَعْلِهِ التَّحِيزُ لِلْفَكَرِ الْعَلَمَانِيِّ الْمُوَاجِهِ لِلشَّرِيعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْحَثُ عَنِ التَّفَلُّتِ وَالْتَّسَاهُلِ عَبْرَ طُرُقٍ مُلْتَوِيَّةٍ فِي إِبْجَادِ الْمُخَارِجِ مِن الالتزامِ وَالْتَّقْدِيدِ بِالْاِنْضَبَاطِ الْدِينِيِّ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ بِفَعْلِ بَعْضِ الْكَبَائِرِ، وَيُظْلِمُ النَّاسَ، وَيُؤْذِيهِمْ، وَيَسْتَرُّوْحُ فِي دُنْيَا هِبَّةِ بَمَا يَشَاءُ، وَيَشْعُرُ بِوَخْزِ ضَمِيرِ يَعْاتِبِهِ بَيْنَ حِينَ لَآخِرٍ؛ فَبِدَّلًا مِنْ تَوْبَةِ نَصْوَحٍ يُخْلِصُهَا لِللهِ، يَتَعَلَّقُ فِي جَوَابِ دِينِيَّةٍ مُسْتَحْبَةٍ فَيُعْطِيهَا مِنَ التَّأكِيدِ أَضْعافًا مَا تَسْتَحِقُ!

وَمِنْ هَذِهِ الْعُقُدِ الَّتِي يُصَابُ بِهَا بَعْضُهُمْ أَنْ يَعْتَدُ تَحْرِيمَ قَضَايَا لَيْسَ كَذَلِكَ؛ ثُمَّ يُضْطَرُّهُ الْقَوْلُ بِالْاِسْتَحْلَالِ عَبْرَ حِيلٍ أَشْبَهُ بِالْتَّحْرِيمِ مِمَّا يَعْتَدُ حُرْمَتَهُ، فَيُجَلِّبُ هَذِهِ الْحِيلُ لِاِسْتَحْلَالِ مَا حَرَّمَهُ عَلَى نَفْسِهِ.

وَفِي لَفْتَةِ فَقِيهِ ذَاتِ تَأْمِلِ نَفْسِي نَذْكُرُ الْإِمَامَ ابْنَ تِيمِيَّةَ أَنَّهُ تَأْمِلُ أَغْلَبَ مَا أَوْقَعَ النَّاسَ فِي الْحِيلِ فَوْجَدَهُ مِنْ شَيْئَيْنِ أَحَدُهُمَا: "مِبَالَغَةُ فِي التَّشَدِيدِ لِمَا اعْتَدُوهُ مِنْ تَحْرِيمِ الشَّارِعِ، فَاضْطَرَّهُمْ هَذَا الاعْتِقَادُ إِلَى الْاِسْتَحْلَالِ بِالْحِيلِ، وَهَذَا مِنْ خَطَاً الْاجْتِهَادِ، وَلَا فَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَأَخْذَ مَا أَحْلَلَ لَهُ، وَأَدَى مَا أَوْجَبَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَحْوِجُهُ إِلَى الْحِيلِ الْمُبَتَّدِعَ أَبْدًا" [4].

وَعَلَيْهِ فَهَذِهِ الْعُقُدُ النَّفْسِيَّةُ الَّتِي تُسَبِّبُ أَشْوَاكًا فِي التَّفْكِيرِ، تَتَطَوَّرُ مَالَاتُهَا لَمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ وَيُخْشَى عَلَى صَاحِبِهَا الْمَرْوَقُ مِنِ الْإِسْلَامِ؛ وَتَحْلِيلُ ذَلِكَ مِنْ شَيْئَيْنِ:

أ. تَكُونُ مَالَاتُ الْإِفْرَاطِ؛ مُزِيدًا مِنَ التَّشَدِيدِ فِيهِ وَالْتَّنْطَعُ حَتَّى يَخْرُجَ صَاحِبُهُ مِنَ الدِّينِ، فَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "فَإِنَّهُ سَيَكُونُ شَيْعَةٌ يَتَعَمَّقُونَ فِي الدِّينِ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهُ" أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ بِسْنَدِ حَسَنٍ.

ب. تَكُونُ مَالَاتُ الْإِفْرَاطِ، مُزِيدًا مِنَ التَّرْخُصِ وَالْتَّسِيبِ حَتَّى يَصِلَّ بِهِ الْحَالُ لِلتَّفَلُّتِ وَالْاِنْحَلَالِ؛ فَقَدْ زَعَمَ أَقْوَامٌ أَنَّ أَكْلَ الْحَلَالِ مُتَعَذَّرٌ فِي عَصُورِهِمْ؛ فَأَعْقَبُهُمْ إِبَا حِيَّةً، وَيُفَسِّرُهُ الْإِمَامُ ابْنُ تِيمِيَّةَ بِقَوْلِهِ: "لَأَنَّهُمْ ظَنُوا مِثْلَ هَذَا الظَّنِّ الْفَاسِدِ؛ وَهُوَ أَنَّ الْحَرَامَ قَدْ طَبَقَ عَلَى الْأَرْضِ، وَرَأَوْا أَنَّهُ لَا بُدُّ لِلْإِنْسَانِ مِنَ الطَّعَامِ وَالْكَسْوَةِ، فَصَارُوا يَتَنَاهُونَ ذَلِكَ مِنْ حِيثِ أَمْكَنُ، فَلَيَنْظِرِ الْعَاقِلُ عَاقِبَةَ ذَلِكَ الْوَرَعِ الْفَاسِدِ كَيْفَ أَوْرَثَ الْانْحَلَالَ عَنِ دِينِ الْإِسْلَامِ" [5].

4. ضغوط الواقع:

فَيَتَهَاوُنُ بَعْضُ النَّاسِ بِقَضَايَا شَرِيعَةٍ وَيَتَشَبَّثُ بِأَخْرَى لِأَسْبَابٍ خَشِيشَةٍ مِنْ تَأْثِيرَاتٍ سَلْبِيَّةٍ تَعُودُ عَلَيْهِ؛ فَهُوَ يَرَى أَنَّ الالتزامَ بِالْهَيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَامَّةِ؛ قَدْ تَوْدِي بِهِ لِفَقْدَانِ وَظِيفَةِ وَعْلَمِ، أَوْ يَخْشَى مِنْ تَهْكُمِ بَعْضِ النَّاسِ بِهِ، فَيَتَفَلَّتُ تَفَلَّتًا شَدِيدًا مِنْ وَاجِباتِ دِينِيَّةٍ؛ كَيْ لَا يُتَّهَمُ وَيَكُونُ فِي مَأْمَنِ الْقِيلِ وَالْقَالِ.

5. الشعور بالسعادة وإرضاء الذات:

حَيْثُ يَتَخَيَّرُ مَا يُرِيدُ مِنْ قَضَايَا الدِّينِ، وَيَأْخُذُ مِنْهُ مَا يَشَاءُ بِطَرِيقَةِ التَّشَهِيِّ وَالْبَحْثِ عَنِ الْلَّذَّةِ وَالْمُتَعَةِ الشَّخْصِيَّةِ الْدِينِيَّةِ وَالْتَّنْطَلُعِ لِصَعْوَبَاتِهَا طَمِيعًا فِي الْمُزِيدِ مِنْ عَلَوَاتٍ وَمَنَاصِبٍ وَأَمْوَالٍ وَجَاهٍ، مَعَ الْاِبْتِعَادِ عَنِ التَّكَالِيفِ الْدِينِيَّةِ الَّتِي يَوْجِدُ فِيهَا نَوْعَ مِنَ الْمَشْقَةِ، وَمَا عَلِمَ أَنَّ الْمِبَالَغَةَ فِي الدِّينِ لَا يُشَعِّرُ الْمَرءَ بِالْسَّعَادَةِ؛ فَالسَّعَادَةُ لِلرُّوحِ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ لِلْجَسَدِ، وَقَدْ أَتَى الدِّينُ فِي الأَصْلِ لِعُمرَانِ الرُّوحِ لِتَسْعَدَ، وَمَا كَانَ الدِّينُ عَامِلًا شَقَاءَ بَلْ عَامِلًا لِإِرْتِقاءِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، فَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: {مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشَقَّى}.

6. الاستهانة بحرمات الله وحدوده وشعائره:

وَتَجَدُّ الْفَارِقُ الرَّئِيسُ بَيْنَ ضَعْفِ تَعْظِيمِ طَاعَةِ اللهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، مَعَ الالتزامِ الْحَرْفِيِّ بِالْقَوْانِينِ وَالْعَادَاتِ وَالْأَعْرَافِ وَالْتَّدْقِيقِ فِيهَا وَجَلْبُ الشُّرَاحِ لِهَا؛ لَكَنَّهُ يَجِدُ أَنَّهُ الشَّخْصُ الْمُنَاسِبُ لِيَقْرَأُ كَلَامَ اللهِ وَيَشْرُحُ مَرَادَ اللهِ مِنْهُ دُونَ حَاجَةِ لِشَرِحَاتِ الْعُلَمَاءِ.

7. الفكر الرغبي للتعامل المصلحي مع الدين [6]:

فَهُوَ يَتَعَامِلُ مَعَ قَضَايَا الشَّرِيعَةِ عَبْرَ مَصْلَحَتِهِ الشَّخْصِيَّةِ كَمَا يَتَعَامِلُ مَعَ مَصَالِحِ الدِّينِ؛ فَتَكُونُ وَسِيلَةُ الْمُنْفَعَةِ اسْتَدْرَارًا مَا فِي الدِّينِ مِنْ تَعْزِيزٍ لِمَزَاجِهِ وَقَنَاعَاتِهِ أَكْثَرَ مِنْ كَوْنِهِ دِينَ فِيهِ التَّزَامُ وَالْتَّكَالِيفُ، وَمِنْ هَذَا يَنْشأُ مَعْنَى التَّقْرُّرِ الْدِينِيَّ الْمُنَوَّيِّ فِي التَّكْلُفِ بِمَا

يُطيقه وبما يُؤثِّر على نفسه وقدراته؛ ابتجاء ما يُريده من طبيعة الحياة الدنيا، فهو مع متطلبات الدين في تهرب وفي متطلبات الدنيا في تطلع دائم!

8. الورع البارد:

وهي نقطة في غاية الأهمية، فمن يقتل دون وجه حق، ويُكثر من الظلم، ويسأل عن بعض دقائق المسائل وصغارها، وقد فرط في العظائم؛ فهو مستخفٌ بحرمات الله، وبرهانه: أنه يسأل عما لا وجه للسؤال عنه، بل عما هو مسكون عنه، أو أنه من المنهايات التي لم تصل درجتها إلى درجة ما سأله عنه، وقد فرط فيما هو واجب أو فرض، ومن يقرأ قوله تعالى في سياق ذكره لليهود حين عبدوا العجل بعد ما تجاوزوا البحر، وقالوا: {مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمُكْلِفًا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أُوزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ} يجد أن الإمام ابن كثير رحمة الله قال: "حاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط، فألقواها عنهم، وعبدوا العجل، فتورعوا عن الحمير، وفعلوا الأمر الكبير" [7].

وهذا عينُ ما فعله المشركون على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، حين أخبر الله عن سؤالهم فقال: {يَسْأَلُوكُمْ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ كُبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفُرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْفَتْلِ}، والحال أنهم يتورعون عن القتال في الأشهر الحرام، وقد سفكوا الدم الحرام وفتتوا المؤمنين عن دينهم.

ويشهد لمثله ما رواه الإمام مسلم رحمة الله عن فضيل بن غزوان قال: سمعت سالم بن عبد الله بن عمراً يقول: (يا أهل العراق! ما أَسَأَلُكُمْ عَنِ الصَّغِيرَةِ، وَأَرْكَبُكُمْ لِلْكَبِيرَةِ) يشير بذلك إلى ما جاء في صحيح البخاري عن ابن أبي نعيم، قال: (كُنْتُ شاهداً لابن عمراً - وَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنْ دَمِ الْبَعْوضِ - فَقَالَ: مِمَّنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: مِنْ أَهْلِ الْعَرَاقِ. قَالَ: انْظُرُوا إِلَيْهِ هَذَا، يَسْأَلُنِي عَنْ دَمِ الْبَعْوضِ، وَقَدْ قَتَلُوا ابْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

ولذلك لواحدٌ في هذا الصدد تبريرات غريبة، منها ما ذكره ابن الجوزي رحمة الله في تلبيس إبليس: "وَقَدْ تسمى قوم من الصوفية بالملامtie، فاقتهموا الذنوب، فقالوا: مقصودنا أن نسقط من أعين الناس، فنسلم من آفات الجah والمraئين. وهؤلاء مثلهم كمثل رجل زنى بامرأة فأحببها، فقيل له: لم تعزل! فقال: بلغني أن العزل مكره. فقيل له: وما بلغك أن الزنا حرام" [8]. فكم من شخصٍ يدقق في قضایا بشكل عمیق لدرجة المثالیة، غير أن الواقع يکشفه بسرعة وقت العمل، وفي هذا يقول مالک بن دینار: "تلقى الرجلَ وما يلحن حرفاً، وعمله كله لحن!" [9].

• مسيسُ الحاجة للتوازن في تصوُّر طبيعة الدين والدنيا:

إنَّ أمَّةً يكثُرُ في وسطها البحث عن اليسر والرُّخص في كثير من التكاليف الشرعية، وتوثر السلامة على المخاطرة، وتتربي على الرخص أكثر من العزائم، كيف يتسرّى لها نشر دينها والصدع بحقها والصبر على الأذى في سبيله.

فمن كان متديناً حقَّ الانتماء لأمة الإسلام ولدينه العظيم؛ فعليه أن يعلم أنَّ هذا الدين ليس قوله جامدة، بل فيه حيوية وعمل، وهذا كانت حركة الإسلام على أرض الله تنتشر بفعل المسلمين، ومع ذلك فلقد بُنيت بهم دولة مُسلمة ونشأت إثراها حضارة إسلامية استفادت من حكمة الشعوب السابقة، وأضافت إليها كثيراً من مُجددات الحضارة، واحتراكات أفادت دنيا الناس وواقعهم، ولم تقطعهم عنها بل ذلت دنياهم، حتى نشأ كثير من عوامل المدنية والصناعة، بسبب حاجة الناس في دينهم إلى خدمته بوسائل دنيوية ابتكارية.

إنَّ مِمَّا جلب غضب الله على يهود أنَّهم أدعوا أنَّهم أبناء الله وأحباؤه، وأنَّهم اعتبروا تفضيل الله لهم على العالمين سبيلاً للتخفف من القيود والحدود الشرعية؛ فاستهانوا بالمعاصي والذنوب، ورقَّ دينهم، حتى اجترأوا على دينهم وكتبو على ربهم، فقد جاء في التنزيل الحكيم: (وَقَالُوا لَنْ تَمْسِنَا النَّارُ إِلَّا أَيَامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرْهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ).

وإنَّ أنساً يُحاولون الالتفاف على دين الله، وارتكاب الحيل، والتفلت من الشرائع، بحجة أنَّها أمَّةٌ مرحومة، وأنَّها أكثر الأمم دخولاً الجنة، وأنَّها خير أمَّةٍ؛ وأنَّ الله خَفَّ عنها كثيراً من الآصار والأغلال التي كانت على من قبلهم، مما يُؤدي ببعض من

ينتسب إليها أن تكون تلك الأمور تُكأة للتفریط بحقوق الله ودينه، واستغلال الدين لمصالح دنيوية، والتشدد في التشبع بالدنيا... وفي أمور الدين يبحث الواحد منهم عن كل ما يُتيح له الانشغال عن دينه، كي يحلو له الحال في دنياه، وما هو سوى عبد للدنيا؛ فليخش أن يكون من دخل في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميسة؛ إن أعطي رضي، وإن لم يُعط لم يرض) أخرجه البخاري في صحيحه.

إنَّ من لطائف القرآن، أنَّ لفظ "الدنيا" ورد بعدِ يُماثل لفظ "الآخرة"، في مائة وخمس عشرة مرَّة، ولعلَّه - والله أعلم - إشارة لما ينبغي التوازن فيه بين القضيتين؛ فالدنيا ممرٌ للأخرة؛ وهي محطة التزوُّد للتفوى؛ فلا يطغى شيء على شيء، طالما أنَّ القصد إرضاء الله تعالى، ولهذا يقول العلامة العز بن عبد السلام: "اعلم أن مصالح الآخرة لا تتم إلا بمعظم مصالح الدنيا كالمأكل والمشارب والمناكح وكثير من المنافع" [10].

إنَّ عبادة المؤمن التي يقوم بها ينبغي أن تؤثر بشكل إيجابي في طبيعة دنياه؛ فمن ذا الذي يتافق مع من يقضي سحابة نهاره في أعمال الطاعة والبر، غير أنه شيء الخلق نزق الطبع؟!

لهذا جاء الحديث النبوى في الحث على التوازن في الحياة الدينية مع الدنيوية، وإن قلت التوازن والطاعات بعد القيام بالفراش فلا إشكال؛ فالمعضلة في أن يكثر من الطاعة سواء كان في تعامله مع الله أو في صدقاته على الفقراء، إلا أنَّ هناك تقصيرًا شديداً في جانب آخر، قد يؤدي به إلى الدركات والعياذ بالله! ونستذكر هنا حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رجل: يا رسول الله! إن فلانة تذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها، غير أنها تؤذى جيرانها بمسانها. قال: هي في النار. قال: يا رسول الله! فإن فلانة تذكر قلة صيامها وصدقتها وصلاتها وإنها تصدق بالآثار من الأقطع ولا تؤذى بمسانها جيرانها قال: (هي في الجنة) أخرجه أحمد في المسند، والبيهقي في (شعب الإيمان) وصححه جمع من المُحدّثين.

يقول العلامة علي القاري في مرقة المفاتيح شرح مشكاة المصايب: في شرحه لقوله: (هي في النار): "أي: لارتكاب النفل المباح تركه واكتساب الأذى المحرم في الشرع، وفي نظيره كثير من الناس واقعون حتى عند دخول البيت الشريف، واستلام الركن المنيف، ومن هذا القبيل عمل الظلمة من جمع مال الحرام وصرفه في بناء المساجد والمدارس، وإطعام الطعام".

بقي أن أقول خواتم كلام:

إنَّ دين الإسلام بطبيعته يسر لا عُسر فيه غير أنَّ فيه جهاد ومجاهدة للنفس. وهو دين قد حثَ على القصد والسداد والمقاربة، فلا يأمر بالشدة والمشقة، لهذا حثَ على السنة واجتناب البدعة. وهو دين رفع الله فيه عن عباده الحرج، ومنع عنهم الضرر، وكتب في شريعته التخفيف في التكليف، وجعل التكليف لا مشقة فيه. وهو دين حثَ الشريعة على الرفق باللولوغ فيه لأنَّه متبين، ونهت عن التشدد على النفس بالأخذ بأحكام الدين، فلا يُشاد أحدُ هذا الدين إلا غلبه. إنه دين نهى عن السؤال عمَّا سكت عنه، وجعله من قبيل العفو المُباح المskوت عنه. وهو دين بعث الله به نبيه بالسماحة، ووضع عنهم الآصار والأغلال. وهو دين لا يرضى العنف ويحث على الرفق، غير أنه يأمر بالقوة والعزيمة والجدية في تلقي أحكامه ولا يوجد فيه أثقال لكنه حاجة لرجال يأخذونه بجدية وقوَّة، وهم من لا تأخذهم الدنيا من كل جانب؛ فهم: (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلو تبديلاً) وهم: (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإنقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تقلب فيه القلوب والأبصار) فأعمالهم الدنيوية لا تلهيهم أو تصرفهم عن طاعة ربهم، كما: "قال بعض السلف: الجبل يمكن أن ينحني منه ولا ينحني من دين المؤمن شيء" [11].

وبهذا كان الدين حنيفاً مائلاً عن طريق الجور والشّطط، قويمَا قاصداً طريق الاستقامة، وإذا كان الدين كذلك، فعلى المرء ألا يغلو في دنياه ولا يشقّ على نفسه لأجلها، فلthen قال الله تعالى: {ما جعل عليكم في الدين من حرج}، فعلى المسلم ألا يشقّ على نفسه في أمر دنياه فيجعل دنياه كلها حرجاً عليه!

وإذا قال تعالى: {لا إكراه في الدين}، فعليها ألا نكره الناس على رأينا ونتشدد من أجله، أو نكرههم على اتباع منهجية دنيوية محددة، طالما يوجد البديل السليمة.
وإذ يحث عباده على عدم الغلو في الدين فيقول: "لا تغلوا في دينكم"، فعدم الغلو في الدنيا من باب أولى..
والله مولانا ونعم النصير.

-
- [1] مجموع الفتاوى، ابن تيمية: (28 / 208).
 - [2] الاعتصام للشاطبي: (2 / 778).
 - [3] المواقف للشاطبي: (3 / 249).
 - [4] القواعد النورانية الفقهية، ص259.
 - [5] مجموع الفتاوى: (29 / 312)
 - [6] كتبتُ ورقة علمية سابقة نُشرت في موقع المسلم حول: مصلحة التدين أم تدين المصلحة؟! (قراءة شرعية في واقع كثير من المجتمعات مع قضية التدين).
رابطها <http://almoslim.net/node/155661>
 - [7] [] تفسير ابن كثير: (5 / 312)
 - [8] تلبيس إيليس، لابن الجوزي، ص468.
 - [9] اقتضاء العلم العمل، الخطيب البغدادي، ص91.
 - [10] قواعد الأحكام للعز بن عبد السلام: (2 / 130).
 - [11] فيض القدير، للمناوي: (2/154).

مركز البيان للبحوث

المصادر: